الاتجاه الإشاري المعاصر في فقه الحديث النبوي
بديع الزمان النورسي أنموذجا

الملخص

د.ة حفيظة عكيوي/ المغرب

الاتجاه الإشاري في فقه الحديث هو اتجاه يقوم على تأويل الحديث النبوي الشريف على خلاف ظاهره لإشارات خفية تظهر لأولي العلم مع إمكان الجمع بينها وبين المعنى الظاهر المراد من الحديث. ففهم الحديث بهذا المعنى لا يخالف أصول الشريعة، وإنما هو إشارات خفية ترد بمناسبة التأمل والنظر في الحديث النبوي الشريف.

وهذا البحث محاولة لإبراز أثر الاتجاه الإشاري المعاصر في فقه الحديث .فقد ركز أصحاب هذا الاتجاه جهودهم في فهم بعض الأحاديث في محاولة منهم لعلاج الانحرافات السلوكية وأمراض القلوب في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، موجهين لها نحو التربية الروحية والسلوكية، والرقي بها في مدارج الفضائل. ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه المعاصر بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، فقد كان هدفه هو مواجهة الإلحاد وترسيخ الإيمان وإصلاح الباطن وتهذيب السلوك. فكلما عرض لحديث التمس منه ما يمكن أن يخدم هدفه مع اعتبار المعاني الأخرى الظاهرة او المستنبطة.

الكلمات المفتاحية: رسائل النور، فقه الحديث النبوي، الاتجاه الإشاري.

* * *

Bediuzzaman al-Nursi as a Representative of the Contemporary Trend to Understand the Implied Meanings of Prophetic Hadiths

ABSTRACT

Dr. Hafiza 'Akyawi / Morocco

The implicational trend in Fiqh al-hadith (jurisprudence of hadith) is a tendency based on the interpretation of the Prophet's (pbuh) hadith, in contrast to its apparent meaning; the hidden signs appear to the scholars of science, who have competence to combine them with the apparent meaning. To understand the hadith by this

tendency, does not contravene the principles of sharia but rather it is considered as a subtle sign of reflection of the Prophet's Hadith.

This paper attempts to highlight the impact of the contemporary implicational trend in modern jurisprudence. The owners of this tendency focused their efforts on understanding some of the hadiths to treat behavioral deviations in contemporary Islamic societies, in order to guide them towards spiritual education and virtuous behavior.

Bediuzzaman Said Nursi, May Allah have mercy on him, is one of the famous of this contemporary trend. His goal was to confront atheism, to consolidate faith, and to improve behavior.

In his discourse he always tried to derive a meaning that can serve his purpose by taking into consideration the apparent or derived meanings.

Keywords: jurisprudence of hadith, implied meanings of hadith, implicational trend.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنزل الله عليه القرآن وعلمه البيان وخصه بجوامع الكلام، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن المتتبع للمؤلفات المعاصرة في فقه الحديث النبوي يلاحظ أنها ليست كلها على منهج واحد، وإنما تختلف باختلاف مدارك مؤلفيها ومسالكهم. فقد عرض لفقه الحديث من المعاصرين من هو متخصص في الحديث، ومن هو متخصص في الفقه، ومن له عناية بالقضايا العامة التي تدخل تحت عموم الفكر الإسلامي. ولهذا اختلفت طرق التأليف ومناهج فقه الحديث بسبب اختلاف مشارب المؤلفين. ومن أسباب التنوع أيضا اختلاف أهداف المؤلفين وتنوع مقاصدهم، واختلاف الظروف المحيطة بكل واحد منهم. فمن المؤلفين من هدفه التعمق والتفصيل، ومنهم من غرضه الاختصار والإجمال، ومنهم من حمله على التأليف إبراز منهج معين وضابط خاص يظهر له حصول الغفلة عنه مثل ضابط تحكيم المقاصد واستحضار العلل. ومن المؤلفين من لم يقصد إلى التأليف في فقه الحديث ولا استنباط الأحكام منه وإنما كان كلما عرض لحديث في مناسبة خاصة أو عامة، تحضره خواطر وإشارات وتأملات من غير اتباع دقيق لمنهج فقه الحديث، وبسبب تمكنه من أصول الشريعة ورسوخه في القرآن الكريم والسنة النبوية، تكون هذه الإشارات والتأملات ذات فائدة علمية. وهناك طائفة أخرى تكون غايتها تحليل قضايا فكرية أو علمية أو اجتماعية هي من

المعضلات في العصر الحاضر بسبب آثارها الخطيرة على الحياة البشرية، ثم تحتكم بعد ذلك إلى السنة النبوية تبحث عمّا له صلة بالموضوع.

فهذه هي الأهداف والغايات، وهذه هي الظروف والملابسات التي حفت بالمؤلفين في فقه الحديث في العصر الحاضر والتي كان لها أثر في طريقة التأليف وكانت الموجه لهم في ما حاولوه من تقديم ما يرونه صحيحًا من معاني الأحاديث، واستخراج الفوائد العلمية والمقاصد العملية المستخلصة من السنة النبوية.

ويعد الاتجاه الإشاري مسلكا متبعا عند بعض المعاصرين في فقه الحديث وإفادة المعاني من السنة والنبوية. وهذا البحث يروم بيان معالم هذا الاتجاه عند المعاصرين.

وهذا الاتجاه في فقه الحديث له نظير في التفسير وهو الاتجاه الإشاري في تفسير القرآن الكريم. وخلاصته استخلاص معاني دقيقة قد يعسر الاستدلال عليها، لكنها معتبرة في الشريعة. وأغلب أصحاب هذا الاتجاه ممن يقصد إلى تربية النفوس وتهذيب القلوب وبناء الإيمان.

١ـ التفسير الإشاري للحديث النبوي الشريف عند المتقدمين

وقبل إيراد أعلام هذا الاتجاه في العصر الحاضر أرى من المفيد جدًا أن أقدم بالقواعد الضابطة لهذا الاتجاه. وسبب ذلك أن المسلك الإشاري عامة سواء في تفسير القرآن الكريم أو في فقه الحديث النبوي الشريف مما تفرع عن قضية علم الباطن والتصوف. ومعلوم أن الباطن والتصوف مما حصل فيه اختلاف شديد وخاصة في العصور الأخيرة بعد أن غلب على التصوف الغلو في الباطن والتمسك بالإشارات على رغم مخالفتها الصريحة للمنقول المقرر من الشريعة.

والذي ينبغي التأكيد عليه أن المقصود هنا من التفسير الإشاري أو الصوفي هو ما كان معتبرا في الشريعة لا يناقض ظاهرها وله ما يؤيده من النصوص، أما ما فيه غلو في الباطن وأسرار لا ضوابط لها فهذا لا يدخل في الحسبان عند الكلام على مناهج العلم واستعراض الاتجاهات في تفسير نصوص الشريعة. فلا يدخل هنا تفسير الباطنية الذين زعموا أن لظواهر القرآن وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم بواطن تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشر، وتلك البواطن رموز وإشارات إلى حقائق معينة، وأن من تقاعس عقله عن الغوص في الخفايا والأسرار والبواطن، أبتلي بالأغلال والآصار التي يعنون بها التكليفات الشرعية التي تنحل عمن ارتقى إلى علم

الباطن فيستريح من أعبائه.[1] فهذا المذهب غير مراد لأنه تحلل من ضوابط العلم وراح يعتبر نصوص الشريعة كنايات ورموزا وإنه لابد من صرف جميع نصوص الشرع من القرآن والحديث عن ظاهره لأنه شأن عامة المسلمين بخلاف الباطن الذي هو شأن الحكماء.

فهذا غير مراد هنا، ولا اعتبار به لأنه متحلل من ضوابط العلم، وإنما العلم ما انضبط للقواعد. وإنما المقصود من الاتجاه الإشاري الصوفي في فقه الحديث ما قال الشيخ الطاهر ابن عاشور عن نظيره في التفسير :" أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجري على ألفاظ القرآن ولكن بتأويل ونحوه، فينبغي أن تعلموا أنهم ما كانوا يدعون أن كلامهم في ذلك تفسير للقرآن، بل يعنون أن الآية تصلح للتمثل بها في الغرض المتكلم فيه، وحسبكم في ذلك أنهم سموها إشارات ولم يسموها معاني، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية."[2] فكذلك حال الاتجاه الإشاري في فقه الحديث لا يدعي أصحابه أن ما عبروا عنه هو عين المعنى وأنه المقصود، وإنما هي معان وإشارات ترد بمناسبة النظر في الحديث وتكون معان معتبرة لها ما يشهد لها، ويوجد من النصوص الأخرى من المعاني ما يؤيدها.

فأصحاب هذا الاتجاه يقصدون إلى تربية النفوس وتهذيب القلوب وحملها على الرقي في درجات القربى إلى الله تعالى. فكلما نظر الواحد منهم في حديث التمس منه ما يرقق القلوب ويزكي النفوس ولو على جهة التكلف بحسب الظاهر، لكنه لا يخرج عن الشريعة لأن هذا المعنى يكون له ما يؤيده من الشرع. وممن عرف بهذا المسلك في القديم أبو حامد الغزالي. ومثال ذلك ما ذكره في قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي طلحة "لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل" ومن حديث عبد الله بن عمر: وَعَدَ النَّبِيَّ ρ جِبْرِيلُ فَقَالَ إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ.[3] قال: "والقلب بيت وهو منزل الملائكة ومهبط آثارهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة كالغضب والشهوة والحسد والحقد والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة... ولست أقول المراد بلفظ البيت القلب وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو تنبيه عليه، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر..."[4]. فنرى هنا أنه لم ينف الظاهر المراد وإنما نبه به إلى غيره على جهة التمثيل. وسمى ابن العربي المعافري أصحاب هذا المسلك

"أصحاب الإشارة" فقال في حكاية ما استنبطوه من الإشارات من الحديث السابق: "قال أصحاب الإشارة قول النبي ρ: "لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة" فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تتنزه عن دخول بيت فيه كلب من الحيوان أو صورة من التماثيل. وهذا حث على إبعادها وحض على تفريغ البيوت منها، لتتمكن الملائكة من الدخول إلى البيوت، لما أمرت به فيه من إحصاء أعمال واحتياط على بدن أو مال أو بركة تنزلها على ذي المنزل أو رسالة تؤديها إليه إذا كان لها صاحبًا... وبعد تقرير هذا فهو تنبيه على تطهير القلوب عن الحسد والحقد، والغضب والبخل، والخديعة والمكر، وسائر الصفات الذميمة، فإنها تمنع من الأعمال الصالحة بالتنفير لها والإقصاء لأسبابها ما تفعله الكلاب في منازلها، والقلوب منزل للملائكة ومعدن الإيمان ومحل التقوى، وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن، وذلك عبارة عن الملائكة المدبرة لها. وإذا طهرت المنازل الحسية عن أجسام الكلاب الحسية، فتنزيه القلوب عن صفات المكروه أولى. فنقر الحديث على ظاهره ونعبر منه على طريق الاعتبار إلى هذا المعنى المشار إليه فنلحقه به ونكون عاملين بالوجهين، موفين حق اللفظ في المعنيين وهذا حكم الاعتبار والإلحاق".[٥] فبين أن المعنى الأصلي عندهم معتبر معمول به مع اعتبار ما هو مثله مما يتصل بأعمال القلوب.

وأحسن الطاهر بن عاشور أيضا لما صنف هذه الإشارات المعتبرة إلى ثلاثة أنواع وهي:

النوع الأول : ما كان يجري فيه معنى النص مجرى التمثيل لحال شبيه بذلك المعنى مثل ما سبق عند الغزالي، ومثل القول في قول الله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا)[البقرة:١١٤] أنه إشارة للقلوب لأنها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس. ومنعها من ذكره هو الحيلولة بينها وبين المعارف اللدنية، وسعى في خرابها بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال من لا يزكي نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل.

النوع الثاني: ما كان من نحو التفاؤل، فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع ما هو غير معناها المراد وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده، والذي يجول في خاطره.

النوع الثالث: عبر ومواعظ وشأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا الحكمة حيث وجدوها، فما ظنك بهم إذا قرأوا القرآن وتدبروا السنة النبوية.[٦]

وممن عرف به أيضا من شراح الحديث المتقدمين الإمام أبو محمد عبد الله بن سعد ابن أبي جمرة الأندلسي (ت٦٧٥) في كتابه "بهجة النفوس وتحليتها بمعرفة ما لها وما عليها" الذي شرح فيه مختصره لصحيح البخاري. ففي تعليقه مثلا على ما ثبت في السنة النبوية من مجانبة المجذوم الوارد في قوله ρ "لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ"[٧] قال: "وإذا أمرنا بالهرب من جذام الأبدان، فمن باب أولى الهرب من جذام الأديان وهم أصحاب البدع والشيع، لأن المرض في قلوبهم، والسم الباطن أشد سريانا من الظاهر."[٨] فهو هنا لم ينف المعنى الظاهر المتبادر، الذي هو الحذر من العدوى واتقاء المرض ومنع جميع أسبابه ومنها تعديته من المريض إلى السليم، وإنما لاحظ ما يشبه هذا المعنى في أحوال القلوب وطرق التربية والتزكية النفسية فعبر إليه على جهة التمثيل، فعمد إلى حال شبيه بمعنى جذام الأبدان الذي ينتقل وهو أمراض القلوب التي تنتقل بالمعاشرة وطول الصحبة لأصحابها.

وفي حديث الإسراء والمعراج وما فيه من شق صدره وغسل قلبه ρ بماء زمزم قبل الإسراء وهو قول النبي ρ: "بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ... فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ الْبُرَاقُ فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا... (الحديث)"[٩] ذكر ابن أبي جمرة أن فيه إشارة إلى أن التحلي يكون بعد التخلي، أي إن تحلية النفس بالصفات الحميدة لا تتم إلا بعد تخليتها من الصفات الذميمة.[١٠]

وفي حديث ما شُكِيَ إِلَى النَّبِيِّ ρ من الرَّجُل يَجِدُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا، أَيَقْطَعُ الصَّلَاةَ قَالَ: "لَا حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا"[١١] ذكر أن فيه إشارة لأهل القلوب ألا يلتفتوا

إلى الشكوك ولا إلى العوارض لا قليلا ولا كثيرا، ولذلك يقولون "إن الملتفت هالك".[١٢]

فواضح كما سبق أن أصحاب هذا الاتجاه ينصرف غرضهم بالأساس إلى تهذيب النفوس وتزكية القلوب، فكل حديث فيه فائدة في تزكية النفس وترغيبها في الفضائل أو في تنفيرها من الرذائل، ولو على جهة الإشارة، فإنه يعتبرونه ويلتفتون إلى هذا المعنى مع اعتبار المعنى الأصلي واعتماد المفهوم الظاهر المتبادر.

٢- التفسير الإشاري للحديث النبوي الشريف عند المعاصرين:

إن ما يذكر هنا من الاتجاه الإشاري أو الصوفي في فقه الحديث ليس فيه شيء مما يتعلق بمذهب الباطنية غير المنضبط المتحلل من القواعد المعرض عن مناهج العلم، وإنما المقصود من كان من العلماء على هذا المنهج من الولوع بالتربية السلوكية والقصد إلى ترقيق القلوب وتهذيب النفوس، فيلتمس من الحديث ما يعين على ذلك ولو على جهة الإشارة مع وجود ما يؤيد هذا المعنى الإشاري في نصوص الشريعة الأخرى.

وإن هذا القصد حاضر عند طائفة من المعاصرين، بسبب ما عرف في العصر الحاضر من قسوة القلوب وضمور الإيمان وفشو الرذيلة وكثرة الانحراف، ووفرة الأمراض النفسية وأمراض القلوب. وقد عبر عن هذا المعنى سعيد حوى فقال: "فالقلب قسا، وأمراضه من حسد وعجب أصبحت فاشية، وحسن التعامل ضعف، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن تتأثر بذلك، لذلك كان لابد لمريدي تجديد الإسلام أن يفكروا في إحياء المعاني القلبية للعبادات، وفي تحلية النفس بأخلاق العبودية، وتخليتها من النزعات الحيوانية والشيطانية."[١٣]

وممن ولع بهذا واشتغل به ونبه إليه الأستاذ سعيد رمضان البوطي حتى صنف فيه كتابا لطيفا سماه "باطن الإثم: الخطر الأكبر في حياة المسلمين" قصد منه إلى التنبيه على غفلة كثير من المسلمين في العصر الحاضر عن إصلاح البواطن والتربية النفسية حتى قست القلوب وفشت فيها الأمراض من الكبر والعجب ونحوهما. وهذا ما سماه باطن الإثم وأن الحاجة ماسة إلى التخلص منه وهذا معنى قوله: "والدواء الذي أريد أن ألفت نظرك إليه موصوف في كتاب الله تعالى، ومشروح في هدي نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إنه التخلي عن باطن الإثم... والقلب الذي سيطرت عليه

نوازع الكبر أو الضغائن والأحقاد أعجز من أن يمد الطاعات والعبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى. وإذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم وظاهر طاعاته، لم تعد فيها أي قدرة على تقريب صاحبها إلى الله جل جلاله، ولم يبق فيها أي وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء وعاد شأنها كالثمار التي ألصقت إلصاقاً بأشجار يابسة، هل ينتظر بها إلا الذبول والفساد ؟"[١٤] وفي التأصيل لهذا المنهج يقول: "وارتكاز أحكام الشريعة كلها على تزكية القلب عن الفواحش الباطنة وتحليه بالفضائل والأخلاق الحميدة، من أوضح ما صرح به كل من كتاب الله تعالى وسنة رسوله. يقول الله عز وجل: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)[الشمس:٩-١٠] ومعلوم أن الضمير في الآية عائد إلى النفس. ويقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".[١٥] ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما :" إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم".[١٦]

٣- التفسير الإشاري للحديث النبوي الشريف عند الأستاذ بديع الزمان النورسي:

من أعلام هذا الاتجاه المعاصرين بديع الزمان سعيد النورسي. فقد اختط لنفسه هدفا وهو إنقاذ الإيمان في نفوس المسلمين المعاصرين ومواجهة الإلحاد والفلسفة المادية. ولهذا فقد ملك عليه هذا جهوده فكان هدفه المنشود هو تعريف الملحدين بالله تعالى، وترسيخ الإيمان في قلوب المسلمين وبيان ما في معرفة الله من سعادة، وما يتحقق للقلوب بالإيمان من إدراك معاني الجمال واللذة الروحية. وكان من أغراضه أيضا معالجة انحرافات النفوس وأمراض القلوب عند المسلمين فكان مولعا ببيان آثار ذكر الله تعالى على النفوس وفوائد التربية الروحية والسلوكية. ولهذا غلب عليه هذا القصد فتجده حاضرا عنده في ما يورده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن الأمثلة التي تشهد لهذا المسلك عنده قوله في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قال:َقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ :أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ."[١٧] يقول رحمه الله: "إن الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به، فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائماً، لأن الإنسان الفرد ما هو إلاّ أفراد عديدة، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعدد أيامه، بل بعدد ساعاته حيث إن كل فرد يعد شخصاً آخر، ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم

النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد جديد آخر. ثم إن الإنسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا، فإن العالم الذي يسكنه سيار أيضاً لا يبقى على حال، فهو يمضي ويأتي غيره مكانه، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد. فالإيمان نور لحياة كل فرد من أفراد ذلك الشخص من جهة، كما أنه ضياء للعوالم التي يدخلها. وما "لا اله إلاّ الله" إلا مفتاح يفتح ذلك النور. ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضييق الخناق على إيمانه حتى تسد عليه منافذ النور الإيماني بنثر الشبهات والأوهام، فضلاً عن أنه لا يخلو عالم الإنسان من كلمات وأعمال منافية لظاهر الشريعة، بل تعد لدى قسم من الأئمة في درجة الكفر. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان في كل وقت، بل في كل ساعة، في كل يوم."[١٨] فلم يقف رحمه الله عند ما يفيده الحديث في ظاهره من الترغيب في الذكر وقول "لا إله إلا الله" وإنما زاد على ذلك القصد والفائدة من ذلك، وسر الحاجة إلى تجديد الإيمان بتجدد أحوال الكون، والحاجة إلى تجديده حتى لا يخلق بسبب نوازع الشر من النفس والهوى والوهم والشيطان.

وفي حديث أَبَي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ ρ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: "هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ "قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: "فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ" قَالُوا لَا قَالَ: "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ... (الحديث)"[١٩] قصد النورسي إلى تحريك القلوب وحملها على التشوف إلى هذا المقام وبلوغ هذا الشرف، وذلك ما يكون سببًا لحملها على التزكية والطاعة والترقي في مدارج الكمال فيقول رحمه الله: "إن نتيجة الإيمان بالله ومحبته سبحانه هي رؤية جمال مقدس وكمال منزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى -كما هي ثابتة بالحديث الصحيح والقرآن الكريم- هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة، ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق. ويمكنك قياس مدى الشوق واللهفة التي تنطوي عليهما فطرة الإنسان لرؤية ذلك الجمال المقدس والكمال المنزّه، ومدى ما فيها من رغبة جياشة وتوق شديد والتياع لشهودهما، بالمثال الآتي: كل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي الكمال، ويشعر أيضاً بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتي

شطر الجمال. فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدس وكمال منزّه الذي من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنة الخالدة بجميع محاسنها ونعيمها وكمالاتها التي تفوق بما لا يحد من المرات جميع محاسن الدنيا وكمالاتها..."[٢٠]

ومن معالم المنهج الإشاري عند النورسي أيضا القصد إلى استخراج الفوائد العملية وبيان الآثار النفسية والنفحات الروحية التي يورثها استحضار الحديث من غير تكلف الدخول في الشرح التفصيلي. مثال ذلك ما فعله لما عرض لحديث " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط، ما من موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى... الحديث."[٢١] قال: "وعندما جردني أهل الضلالة من أسباب الحياة الاجتماعية، وأبعدوني عن كتبي وأحبتي وخدمي وكل ما كان يمنحني السلوان، وألقوني في ديار الغربة والوحشة، وكنت في ضيق وضجر من حالي إلى درجة كنت أشعر أن الدنيا الفارغة ستتهدم على رأسي.. فبينما أنا في هذه الحالة إذا بثمرة من ثمرات الإيمان بالملائكة تأتي لإغاثتي، فتضيء أرجاء دنياي كلها، وتنور العالم من حولي، وتعمّره بالملائكة وتؤهله بالأرواح الطيبة حتى دب السرور والبهجة في كل مكان، وأرتني كذلك كم كانت دنيا أهل الضلالة ملآى بصرخات الوحشة وحسرات العبث والظلام..."[٢٢] فعمد رحمه الله إلى الفائدة العملية للإيمان بالملائكة وما يتحقق للقلب من التهذيب وللنفس من التزكية واللذة باستحضار حضور الملائكة في كل مكان وما يتحقق بذلك من الشعور بالأنس واتقاء ألم الوحدة وأحزان الغربة، خاصة بالنسبة للمبتلين.

ومن أهم الأمثلة التي وقفت عليها عنده إشاراته لما عرض لحديث أبي هريرة "إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن".[٢٣] فقد عرض أولا لما حصل للبعض خاصة المتصوفة من الانحراف في فهم الحديث لما ذكر "أن قسما من أهل الطرق الصوفية فسر هذا الحديث الشريف تفسيراً عجيباً لا يليق بالعقائد الإيمانية ولا ينسجم معها. بل بلغ ببعضٍ من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتهم إلى صورة الرحمن! ولما كان في أغلب أهل العشق حالة استغراقية ذاهلة والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. إلاّ أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان ولا يقبلونها قطعاً. ولو رضي بها أحدٌ فقد سقط في خطأ وجانَبَ الصواب." ثم بين معالم المنهج

المعتمد وهو الرد إلى المحكمات واستحضار الكليات وما ثبت من القطعيات، وهي هنا "أن الله تعالى الذي يدبر أمور الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويسر، والذي يحرك النجوم وأجرام السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذرات وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه، لا يمكن أن يكون له نظير ولا شريك ولا شبيه ولا مثيل قطعا." وأصل ذلك قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[الشورى:١١] ثم بين رحمه الله أن ما يرد في الحديث من التمثيل في صفات الله تعالى وأفعاله ليس مقصودًا لذاته وإنما لتوضيح المعاني في النفوس الإنسانية المخلوقة الضعيفة. فشؤونه تعالى الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماؤه الحسنى يُنظر إليها بمنظار التمثيل وهذا التمثيل مقرر في ضوء مضمون قول الله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[الروم:٢٧] وبالنسبة لهذا الحديث خاصة فقد ذكر القصد من التمثيل الوارد فيه فقال: "ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله "الرحمن" إظهاراً تاماً. نعم، لقد بينا في الأسرار السابقة أنه مثلما يتجلى اسمُ "الرحمن" من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسم "الرحمن" بتجليات لاتحد للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الاسم "الرحمن" في الصورة الجامعة للإنسان يُظهِره بمقياس مصغر بمِثْلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسع وأكبر.

وفي الحديث الشريف إشارة كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على "الرحمن الرحيم" ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالة الإنسان عليه سبحانه ظاهرة قاطعة جلية، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن أن يقال لتلك المرآة: إنها الشمس، إشارةً إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال -وقد قيل في الحديث- إن في الإنسان صورة "الرحمن"، إشارة إلى وضوح دلالته على اسم "الرحمن" وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به."[٢٤] ومعنى كلامه أن معنى "خلق آدم على صورة الرحمن" أي إن الإنسان خلق على صفة يظهر منها ما يتصف به الله تعالى من صفة الرحمة. فيكفي النظر في الإنسان وأحواله وصفاته ليعرف ربه تعالى وما يتصف به من الرحمة مما يعرف باسم الله تعالى الرحمن واسم الرحيم من أسمائه الحسنى. أي إن أسماء الله تعالى وصفاته تعرف من خلال تجلياتها وآثارها في

خلق الإنسان وفي أحواله وشؤونه. وعرض النورسي لهذا المعنى أيضا في موضع آخر فقال: "لا اله إلا الله الواجب الوجود الواحد الأحد بلسان الحقيقة الإنسانية.. الخ. وسأوضح هذه الشفرة القصيرة في منتهى الاختصار... نعم إن الكون العظيم يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر... ولكن لأن لسان كل نوع من الأنواع واسع جداً، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيراً كي يذعن بالأسماء الإلهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر إلى الحقيقة الإنسانية في ذلك المقياس الجامع في تلك الخريطة المصغرة، وفي ذلك النموذج الصادق، وفي ذلك الميزان الصغير، وفي ذلك الشعور بالأنانية، فإنه يصدق تلك الأسماء والصفات بإيمان واطمئنان ووجدان جازم شهودي وإذعاني، وبسهولة ويسر وبمرآته الحاضرة التي بقربه دونما حاجة إلى سياحة فكرية، فيكسب الإيمان التحقيقي ويدرك المعنى الحقيقي للحديث الشريف: "إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن". لأن المراد من الصورة السيرة والأخلاق والصفات. حيث إن الصورة محالة بحقه تعالى."[٢٥] أي إن من طرق معرفة الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العلا النظر في الإنسان المخلوق وخلقته وصفاته التي خلق عليها. وهذا ما سماه النورسي "السير الأنفسي" في مقابل "السير الآفاقي". وكلاهما طريق إلى معرفة الله تعالى. أما السير الآفاقي فهو بمطالعة الكون، وأما "مرتبة السير الأنفسي" التي يشير إليها الحديث فهي عنده الصعود إلى مرتبة الإيمان الخالية من الشكوك والريوب بمطالعة خريطة الحقيقة الإنسانية وفهرس الأنانية البشرية وماهيتها النفسانية، وهي أقوى مرتبة وجدانية وشعورية وشهودية - إلى حد ما- فهي بدرجة حق اليقين بحيث إن هذه المرتبة متوجهة إلى سر الأقربية الإلهية والوراثة النبوية.[٢٦]

هذه نماذج من أعلام الاتجاه الإشاري المعاصر في فقه الحديث، وأمثلة من تصرفه في النظر في السنة والإفادة منها. وظاهر من ذلك أنه يقصد إلى توجيه الحديث نحو ما يمكن أن يستفاد منه في جانب تربية القلوب، وتهذيب النفوس وتزكيتها، وحملها على الفضائل ومنعها من الرذائل. ولا يفهم من هذا أن المعاني الأخرى الظاهرة أو المستنبطة غير مرادة، إنما المعاني الإشارية قدر زائد على ذلك بسبب الحاجة المستمرة إلى التزكية والرقي بالنفس، فكلما نظر الناظر في الحديث واستنبط ما فيه من أحكام بحسب قواعد الاستنباط، فما الذي يمنع بعد ذلك من استخراج المعاني الإشارية حتى ولو كانت خفية فإنها واردة ولها في الشريعة ما

يؤيدها، ولهذا يشترط في هذه المعاني الإشارية ألا تعارض أصلًا مقررًا في الشريعة، أو يوجد من الأدلة ما يعارضها، وأن تدخل تحت قواعد الشرع. والأستاذ بديع الزمان النورسي رائد في هذا الاتجاه، لأنه وضع أمامه مقصد بناء الإيمان في القلوب، وتزكية النفوس وتربيتها. وليس معنى ذلك عدم التزام ضوابط فقه الحديث ومنهج شرحه، وإنما هو قدر زائد على ذلك. أي إن منهج النورسي رحمه الله في شرح السنة النبوية وفقه الحديث النبوي وسلامة فهمه، يقوم على تحكيم القواعد المعتبرة في ذلك التي تواضع عليها العلماء وسار عليها شراح الحديث، ثم الارتقاء من ذلك إلى استخلاص الفوائد التربوية والقواعد العملية السلوكية. فالنورسي بذلك، يؤكد أن فقه الحديث وفهمه نظريًا ليس إلا وسيلة لتحصل التزكية من الحديث، فمن وقف عند الفقه النظري الذي يستخلص الأحكام فكأنه في منتصف الطريق، فلا يبلغ غاية المقصود من السنة النبوية إلا بأن يستكمل الفقه باقتباس مسالك التربية وطرق التزكية والسير عليها. والله تعالى يقول في وصف نبيه وبيان مقصد بعثته: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[آل عمران:١٦٤] فلا فقه إلا بالعلم وسلامة الفهم، ولا عبرة بالعلم وسلامة الفهم إلا بالتزكية، والتزكية تقوم على اتهام النفس، ثم السعي في تخليتها عن الرذائل والمجاهدة في تحليتها بالفضائل.

* * *

الهوامش

[١] يرجع في هذا إلى "فضائح الباطنية" للغزالي، و "العواصم من القواصم" لابن العربي.
[٢] "التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور ١٦/١.
[٣] "صحيح البخاري"، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.
[٤] "إحياء علوم الدين" للغزالي كتاب العلم، الباب الخامس في آداب المعلم والمتعلم.
[٥] "العواصم من القواصم" ص ١٩٩–٢٠٠.
[٧] ينظر: "التحرير والتنوير" ١٦/١.
[٩] "صحيح البخاري" كتاب الطب، باب الجذام.
[١٠] "بهجة النفوس" ص ١٢٧١.
[١١] "صحيح البخاري" كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.
[١٢] "بهجة النفوس" ص ٩٦٩. الحديث رقم ١٦٠.
[١٣] "صحيح البخاري" كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن.
[١٤] "بهجة النفوس" ص ٢١٢. الحديث رقم ١٢ .
[١٥] "المستخلص في تزكية الأنفس" لسعيد حوى ص ٧. وينظر أيضا منه ص ١٣-١٤-١٥.

[16] ''باطن الإثم'' للبوطي ص ٥-٦.

[18] ''صحيح البخاري'' كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه- ''صحيح مسلم'' كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

[19] ''صحيح مسلم'' كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.''. باطن الإثم '' ص ٦.

[20] ''مسند الإمام أحمد''، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

[21] ''كليات رسائل النور: المكتوبات'' ص ٤٢٧-٤٢٨.

[22] ''صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود- ''صحيح مسلم'' كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

[23] ''كليات رسائل النور: الكلمات'' ص ٧٧٩.

[24] ''سنن الترمذي'' كتاب الزهد عن رسول الله، باب قول النبي لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا- ''مسند أحمد'' كتاب مسند الأنصار، باب حديث أبي ذر الغفاري.

[25] ''كليات رسائل النور: الشعاعات'' ص ٣١٩.

[26] ''صحيح البخاري'' كتاب الاستئذان، باب بدء السلام- ''صحيح مسلم'' كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه.

[29] ''كليات رسائل النور: اللمعات'' ص ١٥٣-١٥٤.

[30] ''كليات رسائل النور: الملاحق، ملحق أميرداغ'' ص ٢٨٤.

[31] ''كليات رسائل النور: الملاحق: ملحق أميرداغ'' ص ٢٨٤-٢٨٥.